قصة قصيرة

في ظل الصمت

ذو القرنين بشير *

في يوم عاصف ملبد بالغيوم الداكنة, تلفت يمنة ويسرة ثم توقف عن التسلق على حين غرة. لم يكن قد بلغ جحره الضئيل في أعلى الشجرة بعد؛ لم تفصله عنه سوى أمتار قليلة, ومع ذلك داهمه قلق مفاجئ, لا يدري من أين أتى فاستقر في قلبه كضيف مجهول حل دون موعد. بدا صوت الريح من حوله كأنه نذير شر قادم وأنسحب الأمان بصمت ليترك المكان للخوف وحده.

آثر السنجاب في تلك اللحظة ألا يستسلم لهذا الذهول الطارئ فما زالت أمامه أعباء متراكمة لا تحتمل التأجيل. استأنف تسلقه لكن سرعته تباطأت؛ إذ أضاف التشويش ثقلًا آخر إلى جسده فوق ما كان يحمله من مكسرات جمعها بعناية, خف ذلك الحمل قليلا حين استلقى أخيرا في جحره ذاك الذي كان يراه قلعة صغيرة تحميه من أخطار المتربصين ومن حيوانات قد يروق لها أن ينام في بطونها بعد أن تلتهمه.

وقبل أن يستسلم تماما للهدوء انتبهت أذناه إلى صوت خافت يتسلل من أسفل الشجرة. كانت السلحفاة تحادث ضفدعا.

السلحفاة قالت بهدوء:

مالي أراك تقفزين حول الشجرة؟ لقد زدت الجو المضطرب اضطرابا!

الضفدعة خفضت صوتها وأضافت:

إنما الذي عكر صفو الليالي وأذل أعناق الرجال هو الحرص؛ الحرص أكبر قاتل للبهجة في الصدور! ومع ذلك ما لنا عن قليله مفر, ولا عن كثيره فكاك, أسمع صوت الحشرات تذريّه الرياح فأتبعه كظمآن يتجسس السراب؛ أو كما قال ابن هانئ:

---

* قصة رمزية على ألسنة الحيوانات، تتناول السياسة الملوثة في بيئات العمل.

الكاتب: د. سيد ذوالقرنين بشير، محاضر تعاقدي في جامعة كشمير، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة جواهر لال نهرو، وعلى درجة البكالوريوس من كلية العلوم الشرعية بسلطنة عمان. للتواصل: zooknot@gmail.com.

أنا وفي آمالِ أنفُسِنــــــــــــــا
طـــــــــــــولٌ وفي أَعمارِنـــــــــــا قِصَرُ
نَرَى بأَعْيُنِنــــــــــــا مَصارِعَنــــــــــــا
لو كأنتِ الأَلْبابُ تَعْتَبِـــــــــــرُ[1]

سكتت قليلا ثم قالت بنبرة بدت أقرب إلى التواطؤ منها إلى الفضول:

المهم ماذا عنك يا سلحفاة؟ ما الذي يشغل حيز فكرك في هذه الاثناء؟

تقدمت السلحفاة خطوة ثم توقفت كأنها تقيس المسافة بين الكلمات قبل أن تنطقها, أخفت رأسها قليلا وقالت بصوت خفيض:

في الحقيقة كنت أراقب المكان البومة لا تحب الانتظار, ولا تحب أن تخيّب, إن جاءت ولم تجد ما طلبته, فستسأل.. وحين تسأل, سيكون الحساب بغير الجمل والكلمات!

رفعت الضفدعة عينيها وقالت بسرعة:

إذا علينا أن نريها ما يكفي, أو أن نريها من يكفي!

قالت السلحفاة بعد صمت قصير:

أو أن نترك لها أثرا يدل على أن التقصير لم يكن منا...!

ابتسمت الضفدعة ابتسامة عابرة, وقالت:

لا تقلقي الأثر موجود دائما...!

ثم مالت بنظرها نحو جحر السنجاب قبل أن تعود فتقفز في مكانها كأن شيئا لم يكن.

في أعلى الشجرة.. فتح السنجاب عينيه الصغيرتين كأنهما تبحثان عن أثر للنور في زوايا الجحر الضيقة. لم يكن الظلام جديدا, لكنه أحسه قد اشتد فجأة حين التقط أذناه همس الحيوانين في الأسفل. عندها أدرك أن العتمة لا تأتي دائما من الخارج.

---

[1] أبيات شعر مشهورة.

قال في نفسه وهو يعي دون يقين أنه بطل هذه الايحاءات الملتبسة:

ها قد شرعت الضفدعة كعادتها في حبك إحدى ألاعيبها وكما يقال {عادت حليمة الى عادتها القديمة[٢]}, ثم توقف قليلا, كأن الفكرة أثقل من أن تستكمل دفعة واحدة...!

لكن ماذا عساي أفعل؟

كلنا في النهاية طعام مؤجل. البومة لا تعجل, والسلحفاة لا تخشى شيئا على نفسها سوى الملل, أما أنا والضفدعة فنطيل ما استطعنا أمد الأجل, لا أكثر. غير أن بيننا فرقا لا تخطئه النفس: أنا أتحرز كي أبقى, وهي تحرك الآخرين كي يزولوا...!

أنا لا أطمع في مضرة أحد, ولا أبحث عن ظل أكبر من جسدي, أما هي فشيطانها يعشش فيها, يلازمها ملازمة العروسين ليلة الزفاف, لا فكاك له ولا لها عنه.

تنهد في صمت..

آه.. أما أن لهذا الظلام النفسي أن ينزاح؟! ولو بقدر ما يسمح للنور أن يتقدم خطوة, أو سنتيمترات قليلة, لا أكثر.

لقد سئمت من الضفدعة, ومن خفة يدها الثقيلة ومن ألاعيبها التي لا تترك أثرا إلا في الصدور.

وبينما كان السنجاب يدفع هذه الأنفاس المتز

احمة في داخله, اخترق السكون فجأة صوت أجنحة واسعة تبعه ثقل حضور لا يخطئه السمع. شيء كبير استقر على أعلى شجرة الجوز الشاهقة, كجسم ضخم يهبط ببطء, فيفرض على المكان صمتا جديدا, أشد من كل ما سبقه.

استقرت البومة على الغصن السميك استقرار من لا يشك في مكانه, لا كمن وصل, بل كمن كان هناك دائما. بدا حضورها أثقل من الغصن نفسه تتدلى منه هيبة صامتة لا تحتاج الى صراخ لتطاع! أرسلت نظرة واحدة الى أسفل الشجرة, نظرة لم تحمل غضبا بقدر ما حملت وعدا بالعقاب, فعم السكون كأن الغابة حبست أنفاسها.

[٢]مثل عربي معروف, يستخدم إلى يومنا هذا.

قالت بصوت منخفض, لكنه نافذ:

لا سلام اليوم ولا حديث خارج المطلوب, أخبروني هل قمتم بما أسند إليكم؟ هل علمتم ما لدى غيرنا من موارد, وأين تخفى مُؤن الشتاء, ومن يفيض عليه الخير, ومن يعيش على القلة؟

تقدم الضفدع خطوة, وتكلم بتردد مصقول, فيه من الخشية ما يكفي, ومن المكر ما يزيد:

نعم أيتها الحكيمة, أنا والسلحفاة وحدنا من اضطلع بالأمر, أفنينا الوقت فيه, السلحفاة جمعت شيئا من الطعام, أما أنا فجمعت الأخبار من الممالك المجاورة, ولا سيما القرية التي تتحدث بلسان غير لساننا, يبدو أن الجميع استعد للشتاء ولم يبق إلا نحن وحيوان آخر...!

لم تعلق البومة كأنت تعرف؛ تعرف أن السنجاب أقدرهم على الجمع وأوسعهم دراية وأفهمهم لألسنة الغابة, لكن مع ذلك لم تبد ميلا إليه, حبها للسلحفاة معروف, وصمتها عنه معروف أيضا! الجميع يعلم والجميع يتغافل...!

غاصت البومة في تفكير قصير, وفي ذلك الفراغ فهم السنجاب ما لم يقل. كان التلميح واضحا: أنه يعمل وحده, وأنها خارج الجماعة, وأن استقلاله تهمة لا فضيلة.

وكيف له أن يعاونهم, وهم لا يتحرجون من الجمع بين ما هو مشروع وما هو مشبوه؟! بل كيف يعاونهم وقد كتموا عنه أصل التكليف, وأخفوا أمر البومة عن قصد, ليصير التقصير لاحقا ذنبا يلصق به!

قال في نفسه, لا رافعا صوته, ولا طالبا إنصافا:

{أحشفا, وسوء كيلة؟[٣]} أهكذا تكال الأمور؟ كيلان لميزان واحد؟!

ما أثقل الكذب حين يلبس ثوب الحرص! وما أيسر الافتراء حين يحتمي بالصمت!

شعر أن الاحتجاج العلني لن ينقذه, وأن البراءة في مثل هذا المقام لا تثبت بالكلام. اكتفى بأن شد ما حمله إلى صدره, وفوض أمره لما هو أعلى من الغابة, وأثقل من أجنحة البومة. فالوقت وحده, كفيل بأن يظهر أي الظلال كان أطول, وأيها كأن أصدق.

[٣] مثل عربي قديم.

انسحب السنجاب بصمت, لا لأن الموقف انتهى, بل لأن الكلام صار عبئا لا ضرورة له. توارى في ظلمة جحره وفي عينيه وميض خافت, ليس وميض حقد أعمى, بل يقظة من تعلم أن البراءة وحدها لا تحمي صاحبها...!

كان يعلم أن ما قيل في مجلس الغصن, لم يكن سرا, وأن الممالك المجاورة قد التقطت الخيوط نفسها, وقرأت ما بين القفزات والنظرات. الحقيقة, حين تخفى, لا تختفي بل تغير طريقها فقط!

لم يرد السنجاب أن يهدم أحد, ولم يخطط لانتقام صاخب. كل ما فعل, أنه توقف عن سد الشقوق التي لم يصنعها, وترك لكل أن يحمل وزنه وحده. بعض الأبنية لا تسقط بفعل الضرب, بل بفعل الخوف من السقوط!

مر الشتاء.. وبقي السنجاب في مكانه, لم يقص ولم يقرب, آمن في الظاهر, قلق في العمق, يراقب بحذر, ويعد خطواته, كما تعد الحبوب في زمن الشدة! أما الغابة, فقد بدت كما كانت.. غير أن التصدعات التي لم تر, يوم المجلس, صارت أوضح مع أول ريح.

وهكذا لم يكن السقوط عقابا معلنا, ولا النجاة نصرا كاملا. كان كل شيء معلقا, بين خوف لم يعالج.. وبناء ظن أصحابه أنه قائم.. لأنه لم يسقط بعد!

.... ***** ....